الفصل السادس

المدرسة التاريخية فى مصر
بين
القرنين الرابع والثامن الهجريين

التاريخ المحلى

كتابة الخطط .

ظهور الموسوعات.

الفصل السادس

المدرسة التاريخية فى مصر
بين
القرنين الرابع والثامن الهجريين

الفصل السادس

المدرسة التاريخية المصرية

بين

القرنين الرابع والثامن الهجريين

التاريخ المحلي :

كان القرن الرابع الهجري نقطة تحول خطيرة في تاريخ مصر السياسي والعقدي ففيه كان دخول الفاطميين مصر، ومع التغير السياسي الجوهري في حكم مصر ذلك التغيير الذي انتزع مصر من أحضان الخلافة العباسية السنية، وجعلها مستقلة سياسياً وفكرياً وعقدياً، كما جعلها مركزاً مناوئاً منافساً بل معادياً للخلافة العباسيه في بغداد، هذا التغيير سجله المؤرخون المصريون ومن هؤلاء ابن زولاق المؤرخ المصري ومحمد بن عبيد الله المسبحي.

ذكر ابن خلكان المسبحي في وفياته فقال: هو الأمير المختار عز الملك محمد أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن أسماعيل بن عبد العزيز المعروف بالمسبحي الكاتب وهو حراني الأصل مصري المولد ولد عام ٣٣٦هـ/ ٩٩٦م. وقد تولي المسبحي عدداً من الوظائف منها إدارة البهنسا والقيس من أعمال الصعيد (الفيوم) ثم تولي بعد ذلك ديوان الترتيب، وله مع الحاكم مجالس ومحاضرات كما يشير إلي ذلك في كتابه التاريخ الكبير. ويبدو أن الحاكم قربه إليه واصطفاه وجعله أحد مستشاريه. (١)

والتاريخ الكبير الذي صنفه المسبحي يتناول أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأفراد والأئمة والخلفاء، ويصف فيه أيضاً عجائب مصر وما بها من أبنية، وأطعمة مختلفة، ووصف فيه كذلك النيل العظيم، وزود كتابه ببعض التراجم وأشعار الشعراء وأخبار المغنيين، ومجالس القضاة والحكام والمعدلين والأدباء

---

(١) المسبحي اخبار مصره تحقيق وليم ميلورد القاهرة ١٩٨٠ ص٥

والمتغزلين وغيرهم. وقد ذكر ابن خلكان هذا الكتاب (التاريخ الكبير) في أكثر من موضع في كتابه وفيات الاعيان فيقول أنه يقع في ثلاثة عشر ألف ورقة.

ومن الثابت أن كتابات المسبحي كانت مصدراً خصباً للمؤرخين المصريين المتأخرين، وهذا يدل علي أن أعماله التي زادت علي الثلاثين ظلت كلها أو بعضها متداولة في مصر حتي القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي وربما إلي ما بعد ذلك.

ويذكر ابن خلكان من تصانيف المسبحي: كتاب التلويح والتصريح في معاني الشعر وغيره وهو ألف ورقة، وكتاب الراح والارتياح في ألف وخمسمائة ورقة، وكتاب الغرق والشرق في ذكر من مات غرقاً وشرقاً مائتا ورقة، وكتاب الطعام والأدام ألف ورقة إلي غير ذلك من الكتب والتصانيف في ألوان مختلفة من التأليف. (١)

لكن كتابه الكبير كان أهم مؤلفاته كانت أهو تاريخ مصر الذي عرفه ابن خلكان بأنه التاريخ الكبير وأشار إليه ابن العديم بأنه كتاب التاريخ أو تاريخ المسبحي.

والكتاب علي كل حال يعد من أضخم وأدق ما كتب في التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ مصر بصفة خاصة فقد أكد لنا ابن خلكان الذي اعتمد عليه في كتاباته أنه بلغ ثلاثة عشر ألف ورقة، وهو كما أشرنا سابقا كان مصدراً غنياً بالمعلومات التي سجلها شاهد عيان لأحداث جسيمة مرت بها مصر، كان فيها المسبحي رجل دولة يعلم الكثير من أسرار الحكم والسياسة ويقف علي كافة الأمور المتصلة بالسلطة والسلطان، وقد تبقي جزء من عمل المسبحي هو أخبار مصر في سنتين(٤١٤- ٤١٥هـ) وهو الجزء الأربعون الذي نشرته أخيراً الهيئة المصرية

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٤ ص ص ٣٧٧. ٣٧٨

ومصنفاته أهمية علمية خاصة.

كذلك فإن القضاعي باعتباره فقيهاً شافعياً في ظل الحكم الفاطمي الشيعي يجمل لنظراته للأمور وملاحظته للأحداث وتقديره للمواقف وتقييمه للظروف قيمة تاريخية كبيرة وهو مع ذلك قد شارك في الأحداث السياسية لمصر، وأسهم في صنع سياستها داخلياً وخارجياً.

ونمة عامل هام يضاف إلي شخصية القضاعي العلمية وهو أنه تجول في بلدان الدولة الإسلامية، فزار بغداد عاصمة العباسيين ودمشق والتقي فيها بعلمائها وشيوخها، ثم ارتحل أيضاً إلي المكرمة لينهل من علوم شيوخها وفقهائها فبدت أمامه أحوال الأمة الاسلامية، وظروف العالم الإسلامي آنذاك، خلافة شيعية في القاهرة تطحنها المحنة الكبري والغلاء، وخلافة عباسية شغلتها ظروفها السياسة الداخلية وسيطرة الوزراء والأمراء علي مقدرات الخلفاء، وظهور السلاجقة، القوة السنية الجديدة التي علق عليها المسلمون آمالاً في الخلاص من التمزق والفرقة بالإضافة إلي الدولة البيزنطية العدو الرابض علي الحدود الشمالية للمسلمين تتحين الفرصة للانقضاض عليها إما برأ بجيوشها القوية أو بحراً بأسطولها البحري الكبير.

علي هذه الساحة المشحونة بالمخاطر والتنافس والمنازعات كان علي القضاعي أن يقوم بمهمة صعبة كلفه بها الخليفة الفاطمي المستنصر، وذلك بأن أرسله سفيراً لمصر لدي القسطنطنيه.

ن السفارة التي قام بها القضاعي تعكس نوعاً من التقارب بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية في الوقت الذي كان السلاجقة يمثلون خطراً حقيقياً ماثلاً علي حدود البيزنطيين الشرقية.

وبدت المصالح المشتركة بين الفاطميين والبيزنطين فالشدة العظمي في مصر جعلت الخليفة الفاطمي المستنصر يطلب المدد في شكل قمح وأقوات من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الذي أراد أن يوافق علي طلب الخليفة

الفاطمي وربما يكون ذلك سبيلاً إلي تحالف فاطمي بيزنطي ضد السلاجقة لكن القضاعي يصل إلي القسطنطنية لإتمام المهمة ليجد أن الإمبراطور قسطنطين السابع قد توفي لتخلفه علي العرش الإمبراطورة ثيودورا

وهنا يتغير الموقف البيزنطي فقد أوقفت الإمبراطورة ثيودورا إرسال المؤن والمساعدات إلي مصر واشترطت لإتمام الإتفاقية أن يقف الفاطميون معها عسكرياً ضد جيش السلاجقة وأن يحارب الجيش الفاطمي مع الجيش البيزنطي لصد خطر السلاجقة عن الحدود الإمبراطورية.

ومع أن الإمبراطورة ثيودورا لم تستمر طويلا في حكم الإمبراطورية البيزنطية فقد توفيت عام ١٠٥٧م وخلفها علي العرش الإمبراطور ميخائيل السادس الذي سار علي نفس السياسة التي انتهجتها الإمبراطورة ثيودورا ومن ثم أخفقت مهمة السفير المصري لدي البيزنطيين بل إنه زاد علي ذلك بأن تصالح مع السلاجقة وعقد اتفاقاً مع السلطان السلجوقي مما أثار غضب الخليفة المنتصر الذي أمر بالقبض علي رجال الدين في كنيسة القيامة بالقدس والاستيلاء علي كنوزها ونفائسها مما أدي إلي سوء العلاقات بين الدولتين

وعلي الرغم من الفشل السياسي الذي نجمت عنها سفارة مؤرخنا القضاعي إلا أنها من الناحية العلمية قد أتت بنتائج طيبة ذلك أن القضاعي قضي ما يقرب من العامين بالعاصمة البيزنطية تفقد خلالها أحياءها واطلع علي آثارها وخالط أهلها ومن ثم جاءت كتاباته عنها كتابة شاهد عيان.

وقد ترك القضاعي عدداً من الأعمال التاريخية لكنها للأسف لم تصل إلي أيدينا إلا من خلال المؤرخين اللاحقين الذين افادوا منها واطلعوا عليها ونقلوا منها كثيراً وهذا يؤكد القيمة التاريخية والعلمية والمنهجية والفنية لأعماله التي عاشت حتي العصر المملوكي يؤكد ذلك جلال الدين السيوطي الذي يذكر أنه نقل عن القضاعي من كتابه الخطط قصة فتح مصر ويخبرنا أنه لخص أحداث الفتح مصر

تلخيصاً وجيزاً يقول (ومن خطه نقلت: لما قدم عمرو بن العاص رضي الله عنه من عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أول موضع قوتل فيه الفرما قتالاً شديداً نحوا من شهر ثم فتح الله عليه). (١)

ومع ذلك فإن أعمال القضاعي ظلت نبعاً يفيض علي اللاحقين ومصدراً يعتمدون عليه في تأريخهم لأخبار مصر منذ الفتح وعبر التطورات التاريخية خلال العصور المتتالية، ومما تجدر الإشارزة إليه أن كتابات القضاعي سهلت علي المؤرخين المصريين مهمتهم في كتابه وتدوين وتوثيق تاريخ مصر في فترة كان القضاعي فيها من شهود العيان الثقاة.

ظهور الموسوعات التاريخية:

وتواصل المدرسة التاريخية المصرية تطورها، ويسهم رجالها في تطوير المنهج والأسلوب والطريقة في التدوين التاريخي فمع مشارف القرن الثامن الهجري تظهر الموسوعات الكبري وكتب التراجم الضخمة وهذا التطور يواكب النهضة التى عاشتها المدارس التاريخية الإسلامية الأخري وخاصة المدرسة العراقية.

وكان من أهم أصحاب الموسوعات المصرية شهاب الدين أحمد النويري والمؤسس لهذا النوع من الكتابة.

والنويري من علماء القاهرة ،تعلم في الجامع الأزهر وتفقه علي شيوخه، وظهر في الحياة العامة في عصر الملك الناصر بن قلاوون، وتدرج في بعض المناصب الإدارية خلال السلطنة الثانية لابن قلاوون.

وكانت هذه المناصب سبباً في خبرته التي أدت في النهاية إلي ظهور هذه الأعمال العظيمة له وخاصة موسوعته الشهيرة نهاية الأرب.

ومن بين الأعمال التي انيطت بالنويري في حكومة الملك الناصر محمد بن قلاوون قيامه علي الحسبة، والتحصيلات والنظر علي الغلات والاعتصار

(١) السيوطي حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج١، ص٧٦

والعلوفات والمبيعات وغيرها، وبالإضافة إلي توليته وظيفة عسكرية هامة هي مباشرته لنظر الجيش في طرابلس.

إن التنوع الوظيفي الذي تدرج فيه النويري قد أضفي دون شك مزيجاً هاماً من الخبرات ظهرت واضحة حين اعتزل العمل الحكومي، وعكف علي تأليف موسوعته الكبري نهاية الأرب.

وقد قسم النويري موسوعته إلي خمسة أقسام رئيسية يهمنا منها بطبيعة الحال القسم الخامس أو الفن الخامس وهو التاريخ وفيه تظهر ملكة النويري المؤرخ وحسه التاريخي بشكل واضح ويعد هذا الجزء الذي خصصه للتاريخ أهم ما في موسوعته، بل هو العمود الفقري لها.

إن التاريخ الذي صنفه النويري في موسوعته يضعه بلا منازع في مصاف المؤرخين المسلمين الكبار وهو في ذلك يتساوي مع ابن عساكر والذهبي وابن الأثير في تواريخهم العامة وموسوعاتهم العظيمة التي أثروا بها الكتابة التاريخية الإسلامية.